

دورُ القدس في نهضة الأمة

ورقة علميّة

للأستاذ ياسين حمّود/مدير عام مؤسسة القدس الدولية

دورُ القدس في نهضة الأمة

ورقة علميّة

قدّمها الأستاذ ياسين حمّود/مدير عام مؤسسة القدس الدولية

في الورشة البحثية التي نظمتها

جمعية النور الخيرية الإسلامية في 2018/7/8

مركز الرحمة، صيدا

المحتويات

مقدمة تاريخية 4

أولًا: القدس قبلة المسلمين الأولى وبوصلة جهودهم الجهادية في بلاد الشام 6

ثانيًا: الفتح العمري للقدس تتويج الجهود الإسلامية في الفتوح الشامية 8

ثالثًا: التحرير الصلاحي للقدس عنوان نهضة الأمة 11

- الأمة من التشرذم والانقسام إلى الوحدة وتحرير القدس 11

- الأمة من الانقسام إلى الوحدة 14

- التحرير الصلاحي تتويج جهودٍ إصلاحية وسياسية 15

رابعًا: مساهمة القدس في نهضة الأمة العلمية 18

خامسًا: واقع القدس وفرصة وحدة الأمة في الهدف والوسائل 19

سادسًا: التوصيات 21

مقدمة

شكلت القدس بؤرة تحرك حضاري وثقافي أساسية في المشرق الإسلامي، وأخذت أهمية المدينة بالتزايد من خلال المكانة العظيمة لها في الإسلام، فهي أرض الأنبياء، وميدان البركة والفضيلة، وفي مسجدها الأقصى كانت إمامة النبي عليه الصلاة والسلام بإخوانه من الأنبياء، وهي قبلة المسلمين الأولى ردحًا من الزمن، إضافة لكونها قلب بلاد الشام، وأرض المحشر والمنشر.

تجلت أهمية القدس جلية في محطتين أساسيتين، الأولى خلال الفتح العمري للمدينة، وهي المدينة الوحيدة التي يُشرف أحد الخلفاء الراشدين على فتحها ويستلم بنفسه مفاتيحها، والمحطة الثانية قبيل وخلال التحرير الصلاحي للمدينة، وهو التحرير الذي يعتبر عند الكثير من المؤرخين والدارسين، نموذجًا في إحداث التغيير على الصعد العسكرية والإدارية والعلمية، وتوحيد المدن والأمصار الإسلامية تحت راية واحدة، وصولًا للحظة التحرير بعد احتلالٍ صليبي/فرنجي للقدس دام عشرات السنوات.

لقد كانت القدس واحدة من المعايير الأساسية لمعرفة صحة الأمة وحيويتها، ومقياسًا واضحًا لمدى قوتها من جهة أو ترهلها من جهة أخرى، ففي المحطتين السابقتين كان فتح القدس وتحريرها ثمرة تغيير واضح طرأ على الأمة، مسّ مفاصلها جميعًا حتى أصبحت قادرة على التحرك وإحداث التغيير اللازم، ففي المحطة الأولى كان فتح القدس تتويجًا لمرحلة النبوة وما تبعها من حكم الخليفتين الراشدين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وفي المحطة الثانية، شكل تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، باكورة تغيير عميق، وانتقال الأمة من حال الضعف والشرذمة والتفرقة، والخلافات على الصعد كافة، مذهبيًا وعقديًا وسياسيًا، إلى وحدة وتجانس شملت بلاد الشام ومصر، تحت قيادة

نور الدين محمود زنكي، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، في تجلٍّ حضاري بأن الدافعية خلف تحرير القدس عاملٌ أساسي في نهضة الأمة، وجزء من حالة التغيير التي يجب أن تشمل كل أجزاء الأمة ومكوناتها.

تعالج الورقة قضية مهمة هي دور القدس في نهضة الأمة، وإحداث حالة التغيير الواعي، القادر على الانعكاس على القدس وتحريرها، في صيرورة تاريخية وحضارية، وهو ما يتعزز بالدور الذي تمتعت به القدس على مر التاريخ، ابتداءً من جذب كبار الصحابة الكرام للسكن فيها، والدور الحضاري الكبير الذي تمتع به المسجد الأقصى المبارك، وتحوله لجامعة عظيمة، يتلقى فيها المسلمون شتى الفنون والعلوم.

وتأتي هذه الورقة في محاولة لاختصار جهود مفكرين وعلماء كبار، بحثوا هذه القضايا، وخرجوا بنتائج مميزة، ولتكون هذه الورقة وسيلة من الوسائل التي علينا العمل عليها وتطويرها في سياق إحداق النقلة الجادة القوية، في واقع أمتنا، وجعل القدس في قلب هذه الوثبة، لتكون الثمرة الأساسية لهذا التغيير، تحرير القدس والأقصى من الاحتلال الإسرائيلي، وتغيرًا في ميزان التفاعل مع قضية القدس، وما تعانيه مقدساتها.

أولًا: القدس قبلة المسلمين الأولى وبوصلة جهودهم الجهادية في بلاد الشام

شكل المسجد الأقصى جزءًا من الوجدان الإسلامي، فإليه كانت قبلة المسلمين خلال العهد المكيّ وشطرٍ من العهد المدنيّ، وشكلت القدس محطة تسرية عن النبي ﷺ خلال العهد المكيّ، فكان الإسراء في السنة العاشرة من البعثة إلى مسجدها، حيث أمّ سيدنا محمد ﷺ الأنبياء، ومنها كان معراجه ﷺ، وقد رسخت هذه المحطة مكانة القدس في وجدان المسلمين، فمن القدس كان المعراج، في إشارة بالغة العمق لارتباط فلسطين والقدس بالإسلام، وبالأمة التي اصطفيت وشرفت على باقي الأمم في ساحات المسجد الأقصى.

وقد حبّب النبي ﷺ صحابته بالسكنى في القدس خاصة والشام بشكلٍ عام بعد انتقاله للرفيق الأعلى، وقد سيّر ﷺ غزوتين إلى بلاد الشام، مؤتة (عام 8 هـ) وتبوك (عام 9هـ) التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه[1]، وبهما كان التصادم الأول مع البيزنطيين، وتهيئة عملية للمسلمين من حيث استكشاف المناطق الجديدة عسكريًا، وهي المناطق التي كانوا يعرفونها تجارًا، بالإضافة إلى تأسيس قواعدٍ أمامية للجيوش المسلمة، ففي غزوة تبوك



مسير جيش أسامة إلى بلاد الشام

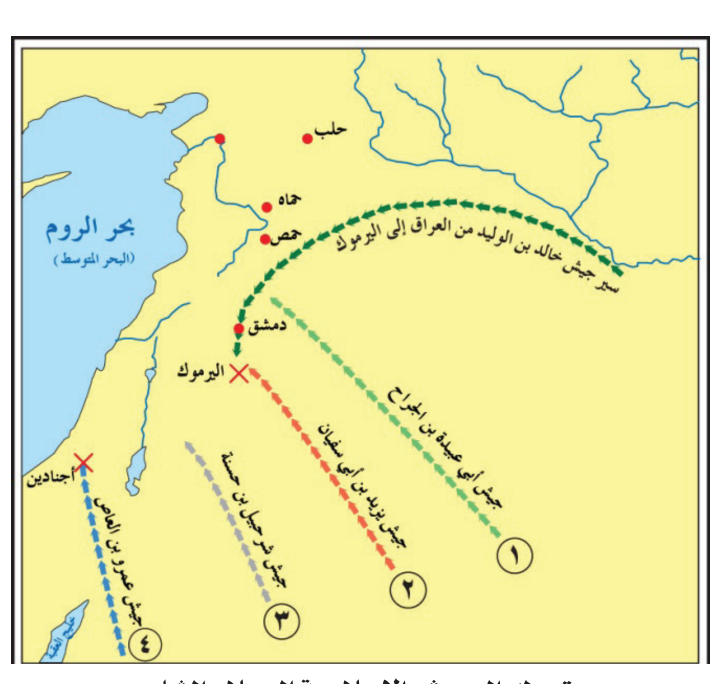
1 محمد ابن هشام المعافري، السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 2، ص 11 و 91.

أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ففتح دومة الجندل، وصالح سكان كل من أيلة وأذرح وتيماء وجرباء[1]، حيث ستظهر أهمية هذا الصلح في مرحلة الفتوح القادمة.

ولم ينتقل ﷺ إلى جوار ربه، إلا وقد جهز جيشًا آخر لغزو الروم، وأمّر عليه أسامة بن زيد في آخر صفر 11هـ، ولكن وفاته ﷺ أخرت خروجه، حتى أنفذه أبو بكر الصديق في أول ربيع ثانٍ 11هـ[2]، وقد استطاع الجيش تحقيق إنجاز مهمّ للدولة المسلمة الناشئة، ففي ظل ردة العرب، استطاع بعث أسامة أن يؤكد جهوزية المسلمين للمرحلة القادمة من الفتوح، وبأن بلاد الشام ستكون نقطة مفصلية في الحركة الحضارية للمسلمين.

عادت القدس وبلاد الشام إلى نصب اهتمام المسلمين بعد الانتهاء من حروب الردة، فجهز أبو بكر الجيوش لفتح بلاد الشام والعراق، ففي سنة 13 هـ أرسل أبو بكر أربع جيوش إلى بلاد الشام، الأول: بقيادة يزيد بن أبي سفيان، ووجهته دمشق. الثاني: بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، ووجهته حمص. الثالث: بقيادة عمرو بن العاص، ووجهته فلسطين. الرابع: بقيادة شرحبيل بن حسنة، ووجهته الأردن[3].

أورد المؤرخون وصايا أبي بكر لقادة الجيوش المسلمة، وهي وصايا تحمل إشارات بالغة الأهمية، من حيث هدف المسلمين من هذه الفتوح، والثوابت الإسلامية في هذه التحركات العسكرية، ففي وصية أبي بكر لقادة جيوش الفتح قال: «لا تعصوا ولا تغلّوا، ولا تجبنوا، ولا تحرقوا نخلًا ولا تعزقوه، ولا تعقروا بهيمةً، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تهدموا صومعة، ولا



تحرك الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام

1 محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس، مركز الزيتونة، ط 5، بيروت، 2012، ص 54.
2 محمد رضا، أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ص 28.
3 جمال عبد الهادي مسعود، الطريق إلى بيت المقدس، دار الوفاء، القاهرة، ج 1، ص 55.

تقتلوا صغيرًا، ولا عجوزًا، ولا شيخًا كبيرًا...»[1]. وقد حملت هذه الوصايا التعليمات الأساسية لقادة المسلمين، وتضمنت جوهر الرسالة الحضارية التي يحملها المسلمون في الفتح.

قام أبو بكر بإرسال خالد بن الوليد من العراق مددًا للمسلمين في بلاد الشام، حيث خرج خالد من العراق في صفر 13 هـ على تسعة آلاف رجل[2]، وتولى خالد قيادة الجيوش الإسلامية في الشام. شكلت معركتا أجنادين في 27 جمادى الأولى 13 هـ، وفحل بيسان في 28 ذي القعدة 13 هـ[3]، أبرز معارك المسلمين التي سبقت معركة اليرموك، وقد حدثت هاتين المعركتان على أرض فلسطين، في دلالة على أهمية هذا الجزء من بلاد الشام، الذي انطلقت منه حركة فتوح الشام.

ثانيًا: الفتح العمري للقدس تتويج الجهود الإسلامية في الفتوح الشامية

بعد امتداد معارك المسلمين من فلسطين، إلى الأردن ودمشق وحمص في الشمال، بدأ البيزنطيون حشد قواتهم لمواجهة التحرك الإسلامي الخاطف، حيث حشد الروم كل إمكانياتهم العسكرية، والتي قدرها المؤرخون ما بين 100 و200 ألف جندي. وبعد بلوغ أبو عبيدة خبر حشود الروم، قرر حشد جيوش المسلمين، التي كانت قد تفرقت لفتح المدن والقرى في الشام. بلغ جيش المسلمين نحو 36 ألفًا، من بينهم ألفٌ من الصحابة، منهم مئة ممن شارك في معركة بدر. ومع احتشاد الجيش الإسلامي في مقابل حشود الروم توفي أبو بكر الصديق وتولى عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين[4].

1 أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، ج 20، ص 104.
2 محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 61.
3 الألوكة، 2017/5/25، //http://www.alukah.net/culture/0116608
4 محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000، ج 3، ص 141.

فوّض أبو عبيدة خالدًا في قيادة الجيش الإسلامي، الذي قام بتغيير تقسيم الجيش في مقابل الحشود البيزنطية، عبر تقسيمه الجند على شكل 4 «كراديس»[1]، وعيّن على كلّ منهم قائدًا، ووقفت النساء من خلف المقاتلين يحضضن على الجهاد[2]. في 5 رجب 15 هـ، وقعت المعركة الفاصلة، وقد استبسل المسلمون وقادتهم في القتال، حتى انهزم الروم، وقتل منهم خلقٌ كثير[3].

بعد اليرموك استطاع المسلمون بقيادة عمرو بن العاص فتح فلسطين، ما عدا قيساريّة والقدس، فاتجه عمرو إلى القدس وحاصرها، ثم تبعه أبو عبيدة وشارك معه في الحصار، وكان حصارهم للمدينة شتاءً، وصمد أهلها على الحصار أربعة أشهر، وأمام بسالة المسلمين، وبعد أن وجدوا بأن لا طاقة لهم على هذا الحصار، طلب أهل القدس الصلح، إلا أنهم اشترطوا أن يعقد الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه الصلح معهم[4].

صالح عمر أهل القدس وهو في منطقة الجابية، وكتب لهم ما اصطلح على تسميته بـ «العهدة العمرية»، وجاء في مقدمتها «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ...»[5]. وشهد على الوثيقة جملة من قادة المسلمين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، وتم ذلك عام 15 هـ.

دخل عمر بن الخطاب إلى القدس، ودخل إلى الأقصى من الباب الذي دخل منه الرسول ﷺ ليلة الإسراء[6]، وفي المدينة عمل عمر بن الخطاب على إعادة الصبغة الإسلامية للمدينة، فقام بتنظيف ساحة المسجد الأقصى حتى ظهرت الصخرة، وأمر ببناء المسجد القبلي وكان بناءً من خشب، وقسم المناطق وعيّن على كلٍّ منها أميرًا، وعين في القدس قاضيًا للناس، وأسس جهازًا للحسبة لمراقبة الموازين، وعمليات البيع، ومراقبة نظافة الأزقة والدكاكين، وحضّ الناس على التجارة لما فيها من خيرٍ وبركة[7].

1 الكرْدوسُ: القِطعة من الخيل العظيمة، والكَراديسُ: الفِرَقُ منهم. يقال: كَرْدَسَ القائدُ خيله، أي جعلها كتيبةً كتيبة. موقع معاجم، https://bit.ly/2wLn6RP
2 الموسوعة الفلسطينية، https://bit.ly/2KdycYD
3 محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 72-73.
4 المرجع نفسه، ص 75.
5 عارف العارف، المفصّل في تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة، ط 2، ص 46.
6 عماد الدين ابن كثير، البداية والنهاية، دار هجر، القاهرة، 1998، ج 9، ص 656.
7عارف العارف، مرجع سابق، ص 49.

لقد بدأت في القدس مع الفتح العمري مرحلةٌ جديدة، من الاهتمام الإسلاميّ بالمدينة. حيث تُظهر قرارات عمر وتنظيماته الإدارية هذا الاهتمام، بالإضافة إلى رؤية ثاقبة لدى عمر لتحويل المدينة لنقطة جذب سكاني، فتسامحه مع سكان المدينة من المسيحيين، وعمارته للمسجد الأقصى، وتنظيم الأسواق والأجهزة الإدارية في القدس، خطوات كفيلة لجعل المدينة حاضرةً أساسية من حواضر المسلمين في الشام، لتتكامل مع أهمية المدينة على الصعد الدينيّة والحضارية.



مسجد عمر بن الخطاب في القدس

فُتحت القدس في العصر الذهبي للإسلام، عصر الرعيل الأول من الصحابة الكرام، فلم تكن القدس حينها عنصرًا دافعًا على تطور الأمة ونهضتها، بقدر ما كانت ثمرة تميز ونهضة هذا الجيل، الذي تربى في محضن النبوة، فكانت القدس جوهرة الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام، وقبلة جهودهم العسكرية، كما كانت قبلة صلاتهم في مرحلة مبكرة من الدعوة الإسلامية، وشكلت القدس المعيار الذي استأهلت فيه هذه الأمة أن تحقق الريادة والتفوق على الأمم الأخرى.

لقد حقق هذا الجيل الانتصار على أعظم القوى الموجودة على الساحة حينها، وقد كان التمسك بالإسلام والعزة بهذا الدين عوامل أساسية في معركة المسلمين مع أعدائهم، فقد

كانت العزة الإسلامية ووحدة صف المسلمين في طاعة قيادتهم، عنوان التحرك الإسلامي في فتوحات بلاد الشام وغيرها من الفتوحات، حتى استطاعت صهر الجهود الإسلامية وتحقيق إنجازات هائلة توجت بفتح القدس، وعودتها للتوحيد مرةً أخرى. وهي الحالة التي تحقق لاحقًا ريادة حضارية ومعرفية وسياسيّة.

ثالثًا: التحرير الصلاحي للقدس عنوان نهضة الأمة

امتدت فترة الحروب الصليبية نحو 200 سنة، وأدت لاحتلال أجزاء كبيرة من بلاد الشام، في القلب منها احتلال مدينة القدس، وتشكل هذه الحروب نموذجًا للمقارنة مع واقع المشرق اليوم، من حيث واقع الأمة قبيل الاحتلال الصليبي، الذي طغى عليه التشرذم والضعف، والخلافات المذهبية والفكرية والسياسية، التي أضعفت الأمة وجعلت الاحتلال الصليبي للقدس ممكنًا، دون وجود أي مقاومة شاملة زمن الاحتلال، وهي الحالة التي دفعت الأمة للنهوض من كبوتها، وتوحيد جهودها لتحقيق النصر والتحرير.

لقد وصفت الحروب الصليبيّة بأنها أول حركة استعمارية للغرب الأوروبي على الشرق[1]، وتعيش فلسطين والقدس اليوم احتلالًا جديدًا مماثلًا، لظهير هذا الغرب الاستعماري، احتلالٌ يعمل على تثبيت أركانه ليحقق بقاء طويل الأجل، مقابل حق واضح وشعب لا يستسلم. وكما شكلت القدس عنوان نهضة الأمة من واقعها المأزوم، يجب أن تكون القدس اليوم بوصلة الأمة لتحقيق النهوض والوحدة، وعاملًا لتحقيق نهضة يكون أول ثمارها تحرير القدس من الاحتلال الإسرائيلي.

تشرذم الأمة طريق الهزيمة

قامت الحروب الصليبيّة نتيجة عوامل سياسيّة واقتصاديّة ودينيّة واجتماعية مختلفة، وهي الأسباب التي دفعت آلاف الأوروبيين للمشاركة فيها، للاستفادة من هذه الفرصة، للتخلص

1 سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية، 1964، ص 17.


رسم يجسد مجازر الصليبيين في القدس بعيد احتلالها

من واقعهم السيء، أو للحصول على كنوز الشرق العظيمة[1]. وبدأت شرارة هذه الحروب بخطاب ألقاه البابا أوربان الثاني في 27 تشرين ثانٍ 1095م، في كليرمونت في فرنسا، دعا خلاله أوروبا لإعداد حملات عسكرية لتحرير القدس والبلاد المقدسة، ومع انطلاق هذه الحملات، سقطت مدينة أنطاكيا بعد حصارٍ طويل عام 1098م، ثم سقطت القدس في 15 تموز 1099م الموافق 23 شعبان 492 هـ[2]. حيث ارتكب المحتلون مجازر فظيعة، ويقول المؤرخ ابن الأثير عن هذه الفظاعات «لبث الفرنج في البلدة أسبوعًا، يقتلون فيه المسلمين»، ويقول «قتل الفرنج بالمسجد الأقصى، ما يزيد على سبعين ألفًا»[3].



الممالك الصليبية في بلاد الشام

لم يكن اكتساح الصليبيين/ الفرنجة السريع للمناطق الإسلامية، إلا نتيجة لحالة الضعف والتمزق التي كانت تعاني منها الأمة. فمنذ منتصف القرن الثالث

1 سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية، 1964، ص 17.
2 تاريخ الحملات إلى القدس، ص 9-10.
3 على ابن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج 9، ص 19.

الهجري، أخذت الخلافة الإسلامية بالضعف والترهل، وسيطرت مظاهر البذخ واللهو على الدولة العباسية، ولم يعد للخلفاء العباسيين أي سلطات تذكر، وتنازعت البلاد الإسلامية ثلاث دول تسمي نفسها خلافة، فالخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في مصر وأجزاء من المغرب والشام، والخلافة الأموية في الأندلس[1]. وسيطرت عوائل من الأمراء على الخليفة العباسي كالبويهيين والسلاجقة، وجراء ضعف سلطات الخليفة في بغداد، ظهر في بلاد الشام عددٌ من الدويلات الصغيرة المتناحرة[2].

وعلى الصعيد الفكري والمذهبي، نشطت مذاهب عديدة كالأشاعرة والحنابلة والمذاهب الفقهية، ساهمت في إثراء الحياة الفكرية ومواجهة التيارات الباطنية، واستطاعت هذه المدارس بلورة مؤسسات اجتماعية وثقافية وإدارية. ولكن مع النصف الثاني من القرن الخامس، دخلت هذه المذاهب والمدارس الفكرية في صراع مذهبيّ، نسف الجهود السابقة، وصبغ المجتمعات الإسلامية بالسلبية والجمود، وحوّل الأمة إلى فرق متناحرة، الأمر الذي انعكس سلبًا على اهتمام جموع الأمة بقضاياها الأساسية[3].

وانعكست هذه الحالة على الحالة الفكرية للأمة، فهي من جهة انعكست جمودًا فكريّا عامًا على حركة التأليف، ومن جهة أخرى على التعليم، وما يتصل به من مدرسين وأصحاب المراكز الدينيّة كالقضاء والإفتاء، فعملت المذاهب على فرض سيطرتها على التعليم، لتهيمن لاحقًا على المناصب[4]. وهي الحالة التي تطورت لاحقًا لشجارات واقتتال بين أنصار هذه المذاهب، يسقط على إثرها قتلى وجرحى[5].

لم يكن هذا الاضطراب الوحيد الذي عمّ البلاد الإسلامية، فقد فرض الحكام الضرائب، ورفع التجار أسعار السلع بأشكالٍ مبالغة، خاصة خلال الأزمات والقحط، فزاد أعداد الفقراء وما يعانونه. وفسدت الحياة الاجتماعية، ونتيجة لهذا الواقع انصرف المجتمع الإسلامي عن دوره

1 المرجع نفسه.
2 محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 88.
3 ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، دار القلم، دبي، 2002، ص 40-41.
4 المرجع نفسه، ص 46.
5 المرجع نفسه ص 49.

الحضاري، ولم يلتفت إلا لقضايا التي تتعلق بحياته اليومية من معيشة وغذاء وكساء، بالإضافة إلى الابتعاد عن جوهر التدين، والاقتصار عليه كشعائر أو عادات فقط[1].

لم تكن الجهود الإصلاحية في تلك الفترة منعدمة، ولكنها كانت جهودًا فردية، لا تستطيع تغيير الأمة، خاصة وسط غياب المشروع الشامل للتغيير القادر على تحقيق التوازن بين الحالة الاجتماعية- الفكرية، والسياسية، والتي تحققت فيما بعد بوجود علماء مصلحين وقادة صالحين.

الأمة من الانقسام إلى الوحدة

شكل احتلال القدس وباقي مناطق بلاد الشام صدمة كبرى لدى جموع الأمة، ولم يكن تقاعس الحكام والخلفاء عن نصرة القدس، إلا نتيجة حالة التردي التي وصلت إليها الأمة وأدت إلى تغلب الصليبيين/ الفرنجة على سواحل الشام والقدس.

بدأت الجهود الإصلاحية في الأمة، مع جهود الوزير السلجوقي نظام الملك، حيث قام بإنشاء المدارس والجامعات «النظامية» في مختلف المدن والقرى التابعة للسلاجقة، بالإضافة إلى عددٍ من العلماء الذين تولوا شؤون التدريس والقضاء والحسبة، ومنهم الإمام الجويني والغزالي وأبو إسحاق الشيرازي وغيرهم[2].

ومع تأثر جهود نظام الملك بالخلافات الداخلية بين الأسرة السلجوقية، واغتيال نظام الملك في 10 رمضان 485 هـ[3]، بزغت مدارس إصلاحية عديدة على رأسها مدرسة الإمام الغزالي، وقد عملت على علاج الأمراض التي تفتك بالمجتمعات الإسلامية على الصعد الفكرية والفردية، وإعداد المميزين لاستكمال مسيرة الإصلاح والتعليم، بالإضافة لمدارس أخرى عملت على الاهتمام بالعامة من المسلمين، من الفلاحين والبدو والأحياء الشعبية في المدن الإسلامية، وقد

1 المرجع نفسه، ص 75-83.
2 ماجد عرسان الكيلاني، مرجع سابق، ص 99.
3 ابن الأثير، مرجع سابق، ج 8، ص 479.

انتشرت هذه المدارس انتشارًا كثيفًا خاصة في الأرياف والمناطق النائية، ما أسهم في تحقيق انطلاقة جادة لنهضة الأمة[1].


رسم يجسد إمارة حلب زمن الزنكيين

بدأت ثمار هذه المدارس الإصلاحية بالظهور، مع تولي آق سنقر إمارة حلب في شوال 479 هـ، وسار في حلب سيرة حسنة، فأقام الحدود الشرعية وقضى على اللصوص وقطاع الطرق، فأمن الناس على أموالهم وأنفسهم. ثم خلفه ابنه عماد الدين زنكي، الذي سار على خطى والده، فتولى إمارة الموصل عام 521 هـ، وفي 522 هـ سيطر على حلب، حيث وجه جهوده العسكرية لمواجهة الصليبيين، فاستطاع تحقيق انتصارات كبيرة، وتوجت جهوده في مواجهة الصليبيين، بإسقاطه أول مملكة صليبية أقامها الفرنجة في بلاد الشام، مملكة الرُّها الصليبية في 6 جمادى الآخرى 539 هـ، وفتح ما يتبع لها من أعمال، وبعد 20 عامًا من عمله على توحيد الأمة وجهاده للصليبيين، قتل عماد الدين زنكي في ربيع أول 541 هـ، بعد أن أسس طريق التحرير لولده نور الدين محمود.

التحرير الصلاحي تتويج جهودٍ إصلاحية وسياسية

بدأت مع نور الدين مرحلة جديدة في جهاد الصليبيين، وبدأت معالم تحرير القدس تتبلور بشكلٍ أكبر، فقد شكلت سياسة نور الدين نقطة قوة لمدارس الإصلاح، حيث تضافرت جهود الدولة لتحقيق القاعدة الصلبة لمواجهة الممالك الصليبية، وأصبح نور الدين نموذجًا للقيادة الإسلامية الصادقة، لما يمتلكه من صفات قياديّة، إضافة إلى ورعه وتقواه.

1 ماجد عرسان الكيلاني، مرجع سابق، ص 99.

تمثلت خطة نور الدين زنكي بعددٍ من السياسات الرامية للنهوض بالأمة، ورفع سويتها في إطار إعداد المواجهة واستعادت القدس، ونذكر من هذه السياسات[1]:

- إعداد الشعب إسلاميًا، والقضاء على التيارات المنحرفة.
- إشاعة العدل، وتعيين الأكفاء في الوظائف الرسمية.
- توحيد صف الأمة، ونبذ الخلافات المذهبية.
- إقامة المنشآت العامة، ورفع سوية الاقتصاد الإسلامي.
- تعزيز القوة العسكرية، والعناية بالصناعات العسكرية.
- توحيد المناطق الإسلامية، وخاصة بلاد الشام ومصر.
- إنهاك القوة الصليبية، وتدميرها بشكلٍ تدريجي، وتحرير المناطق المحتلة تدريجيًا وصولًا لتحرير القدس[2].

حققت سياسات نور الدين نتائج باهرة، فاستطاع السيطرة على قلاع ومدن الشام واحدة تلو أخرى، وبعد ثلاث حملات على مصر، استطاع السيطرة عليها في ربيع أول 564 هـ، وتولى القائد أسد الدين شيركوه الوزارة عند الفاطميين، ثم تولاها من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وفي محرم 567 هـ أسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية، وخطب للخليفة العباسي على المنابر[3].

وبعد نور الدين تولى صلاح الدين دفة الجهاد ضد الصليبيين، وشكلت معركة حطين أبرز المعارك الفاصلة مع الصليبيين، وفي 24 ربيع الآخر 583 هـ[4]، انهزم الصليبيون هزيمة فادحة، وانفتحت أمام جيوش المسلمين الطريق لتحرير المناطق المحتلة، فاستطاع المسلمون تحرير طبريا وعكا والناصرة وصفورية، ثم اتجهوا إلى الخليل وبيت لحم وعسقلان وغزة، وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية[5]. وتحولت أنظار المسلمين إلى القدس، حيث أصبح الطريق

1 ماجد عرسان الكيلاني، مرجع سابق، ص 255-256.
2 محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 104.
3 محسن محمد صالح، مرجع سابق، ص 105-106.
4 المرجع نفسه، ص 114.
5 المرجع نفسه ص 116.

لتحريرها مفتوحًا.


صورة لمنبر نور الدين زنكي خلال العهد العثماني

فرض صلاح الدين الحصار على القدس في رجب 583 هـ، وقبل صلاح الدين إعطاء الصليبيين الأمان، وتم تسليم المدينة في 27 رجب 583 هـ، وأظهر صلاح الدين من التسامح والرحمة تجاه الصليبين، وعادت القدس للمسلمين بعد 88 عامًا من احتلالها. وتابع صلاح الدين جهاده ضد الصليبيين، واستطاع تحرير العديد من المدن والقلاع الصليبية، فعام 584 هـ فتح جبلة واللاذقية وقلعة صهيون وغيرها. وبذلك استطاع صلاح الدين تحرير غالب مناطق فلسطين. وهكذا جمع صلاح الدين الأيوبيّ جهود الأمة خلف هدفٍ سامٍ هو تحرير القدس، فشارك المسلمون في جيشه من مختلف الأمصار، ولبّوا نداء القدس، وكان يوم تحريرها عرسًا في أرجاء أمة الإسلام التي كانت تتعطش لاستعادة المدينة إليها.

رابعًا: مساهمة القدس في نهضة الأمة العلمية

تحول المسجد الأقصى منذ عصر الصحابة إلى منارة معرفية وعلمية، فبعد تحديد عمر بن الخطاب مكان المسجد الأقصى، قام بتعيين من يعلّم القرآن فيه، وأول من تولى هذه المهمة في القدس، هو معاذ بن جبل، ومن بعده عبادة بن الصامت[1].

نشط في الأقصى تلقي مختلف العلوم الشرعية وخاصة علم الحديث، حيث زار القدس والأقصى جملة من الصحابة الذي رووا الحديث، بالإضافة للصحابة الذين استقروا في المدينة، ونذكر منهم، أبو الدرداء وأبو أبيّ ابن أم حرام، وأبو عبيدة ابن الجراح، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم، ومن التابعين أويس القرني وعبد الرحمن بن غنم الأشعري[2].

وزار المسجد الأقصى معلمًا أو متعلمًا عددٌ من العلماء الأعلام، من بينهم الزهري والأوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد والشافعي رحمهم الله، وبزغ من القدس علماء مبرزون في مختلف العلوم الإسلامية، من بينهم محمد بن أحمد المقدسي البشاري مؤلف «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وأبو المعالي وابن تميم المقدسيان، وبرزت أسر علمية كاملة من القدس، أبرزها عائلة ابن قدامة المقدسي صاحب «المغني»، وقد نزحت واستقرت العائلة في مدينة دمشق بعد الاحتلال الصليبي للقدس، ومن العلماء الذين استقطبتهم المدينة الإمام أبو حامد الغزالي الذي اعتكف في المسجد الأقصى وقدم إلى المدرسة النصرية وألّف فيها كتابه الشهير «إحياء علوم الدين» أو بعض أجزائه حسب المصادر المختلفة[3].

وبعد التحرير الصلاحي للمدينة، عاد المسجد الأقصى لسابق عهده وأهميته بعد انقطاع دام طيلة فترة الاحتلال الصليبي، وتولى جانبًا من النهضة العلمية فيه كل القاضي الفاضل والقاضي بهاء الدين بن شدّاد. وقد شهدت القدس نهضة علمية مميزة، وتطور التعليم في الأقصى خاصة وفي القدس عامة، مع إنشاء العديد من المدارس الوقفية، في العهود التالية

1 عامر جاد الله أبو حسنة، الحركة العلمية في القدس من الفتح الإسلامي 15هـ حتى 132 هـ، مجلة حوليات آداب عين شمس، ص 289.
2 المرجع نفسه، ص 291.
3 مجلة ميم، 2017/9/12 https://goo.gl/jLQQhA

الأيوبية والمملوكية والعثمانية، وارتفع عدد المدرّسين والطلبة والفقهاء والعلماء المشتغلين فيها، وأُجريت على هذه المدارس الأوقاف والعطايا من السلاطين والحكام، وتحوّلت باحات وأروقة ومصاطب المسجد الأقصى إلى جامعة حافلة، تشهد عشرات الحلق العلمية في التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، وغيرها من العلوم المتداولة حينها[1]. وفي عهد صلاح الدين الأيوبي كان في القدس أكثر من سبعين مدرسة، بالإضافة إلى عشرات الزوايا والخوانق[2].

وخلال عهد المماليك ازدهر التأليف بشكلٍ كبير، خاصة في الفقه والتراجم، وظهر في عهدهم كثيرٌ من العلماء والأدباء والفقهاء والمؤرخين. وشهدت القدس حركة عمرانية نشطة، استهدفت المسجد الأقصى المبارك، وما حوله مما يُعرف اليوم بالبلدة القديمة، فبنيت المدارس والتكايا والزوايا والمنازل والحمامات والخانات التي لا تزال آثارها باقيةً حتى اليوم[3].

خامسًا: واقع القدس وفرصة وحدة الأمة في الهدف والوسائل

تعاني القدس من الاحتلال الإسرائيلي منذ عشرات السنين، وهو احتلال يعمل بكل ما لديه من سلطة وقهر وقوانين على تحويل معالم وتاريخ المدينة المحتلة العربيّ والإسلاميّ، إلى مدينة يهوديّة المعالم والسكان. يعمل الاحتلال لتحقيق هذا الهدف على مساراتٍ عدة، تتضمن كلٌ منها اعتداءات عديدة تطال المقدسيين والمقدسات على حدٍ سواء، وتجعل من حياتهم في القدس ضربًا من الصمود والمواجهة. تتركز استراتيجية الاحتلال التهويديّة على عددٍ من المسارات الأساسية، تطال المقدسات الإسلامية والمسيحية، وفي القلب منها المسجد الأقصى المبارك، حيث تتابع أذرع الاحتلال من اقتحام المسجد بشكلٍ شبه يومي، وتدخل إليه المزيد من المستوطنين، في محاواة لتحويل وجودهم في الأقصى من وجود طارئ إلى آخر دائم وطبيعي، في طريق تطبيق التقسيم الأقصى زمانيًا ومكانيًا، بالإضافة إلى محاولة فرض سيطرة الاحتلال على إدارة المسجد، عبر التدخل في عمل دائرة الأوقاف، وفرض الإجراءات المشددة على أبوابه.

1 مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية، 2014/1/29 http://www.aqsaonline.org/news.aspx?id=5668
2 ناهدة الكسواني ونجية الحمود، الحركة الفكرية في بيت المقدس بعد زوال الاحتلال الصليبي، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن عشر، كانون ثانٍ 2010، ص 5.
3 الموسوعة الفلسطينية، https://goo.gl/kY5Jpq



اقتحام المستوطنين للأقصى وتقديم شروحاتٍ حول «المعبد»

ويأتي استهداف المقدسيين ضمن خطط الاحتلال لتهويد القدس، حيث يحاول خفض أعداد المقدسيين، في مقابل رفع أعداد المستوطنين، من خلال هدم منازل الفلسطينيين، وسحب بطاقات الإقامة الدائمة منهم، وتعريضهم للاعتقال الدائم، والإبعاد على القدس والأقصى لفترات طويلة. في مقابل رفع أعداد المستوطنين، عبر تعزيز المشاريع والبناء الاستيطانيين في المستوطنات المحيطة بالقدس، ومشاريع القوانين الرامية لضم أكبر قدر ممكن من المستوطنين، وإخراج الأحياء الفلسطينية من حدود المدينة، وهو ما حققه سابقًا الجدار العازل، الذي فصل قرى ومناطق فلسطينية عدة عن المدينة المحتلة.

وتأتي هذه الخطط التهويديّة، بالتزامن مع ضرب الحياة الاقتصادية للمقدسيين، حيث ترتفع نسب الفقر ومعدلات البطالة بينهم، بالإضافة إلى محاول ضرب بنية المجتمع المقدسي، عبر استهداف الأطفال، وضرب قطاع التعليم، لإخراج جيل تختلط لديه القيم والمفاهيم الوطنية، في إطار التسليم بالواقع الذي يفرضه الاحتلال.

لا يمكن حصر تغول الاحتلال بأسطرٍ قليلة، ولكن هذه الاعتداءات لا تمسّ الفلسطينيين في القدس فقط، بل تمسّ كل عربيّ ومسلم، مما يؤكد على ضرورة وحدة الأمة لنصرة القدس،

وأن تكون ما تعانيه المدينة من إرهاب إسرائيلي مدعاة لتوحيد الجهود ورفع التكاتف والعمل على بناء المشاريع الجادة لمواجهة الاحتلال.

لقد كانت القدس على مرّ التاريخ عاملًا حاسمًا في جمع كلمة الأمة، والدفع بها نحو الوحدة في سبيل فتحها وتحريرها، بل من الطبيعي أن تكون القدس هي أهم عوامل جمع الأمة وحشد طاقاتها، فهي المدماك الأول في مواجهة عدوها المشترك ألا هو الاحتلال الإسرائيلي.

وقد شكلت القدس منذ عام 2000 فرصة حقيقية لتلاقي أطياف الأمة حول موضوع القدس، خاصةً بعد انتفاضة الأقصى، وتجلت هذه الوحدة العربية والإسلامية بين أطياف الأمة المختلفة، ومكوناتها من أحزاب وحركات وجمعيات وقوًى فاعلة، إلى تشكيل أطرٍ كبرى تعنى بالمدينة المحتلة وتتابع شؤونها على الصعد المختلفة، ومنها على سبيل المثال «مؤسسة القدس الدولية» التي شكلت نموذجًا للتلاقي بين مكونات الأمة المختلفة من أجل نصرة القدس. لقد كانت القدس محل جمع، خاصة في واقع تحتاج الأمة فيه لعامل للوحدة والجمع، فالقدس هي أهم العناوين المشتركة القادرة على جمع شتات الأمة، في واقع تزداد فيه الخلافات، ويعمق فيه الشرخ بين مكونات الأمة.

سادسًا: التوصيات

المرجعيات الدينية:

- العمل على وضع القدس في بوصلة اهتمام الأمة، من خلال تأكيد أهميتها الدينية، واستلهام سير السابقين من الصحابة والعلماء والعظماء في اهتمامهم بالقدس.
- الحديث عن استراتيجيات وسنن تحرير القدس، واستلهام التجربة الصلاحية والنورية في تحرير القدس، وتحويل الجيل الحالي للجيل القادر على النهوض بهذه المهمة.
- العمل على وضع رؤية إصلاحية للمجتمعات والبيئات الإسلامية، في سياق تحقيق نهضة بنوية قادرة على تشكيل جيل مميز ربانيّ.

- تصدير خطاب ديني قادر على تقليل التبيان بين مختلف المذاهب الدينية، في سياق رفع المشتركات، وخاصة بما يحقق الفائدة على القدس وأهلها.

القوى والأحزاب والجمعيات:

- ضرورة العمل على خطاب وحدوي ينحي الخلافات الجانبية بين هذه الأطياف، ويعلي من شأن العمل لفلسطين ولقضية القدس.
- تنظيم حملات مشتركة لتوعية جماهيرها بما يجري في القدس، وبأن مسؤولية نصرة القدس ومن ثم التحرير، مسؤولية جمعية لا تقع على فئة بعينها، بل هي نتاج جهود الأمة بمجموعها.
- إقامة كيانات عابرة للأحزاب والفصائل والقوى المحلية، تعنى بمدينة القدس، تسمح بتوسيع مروحة العمل للقدس، وجعل مكوناتها رافعة في أطر العمل الشعبي والتعبوي.

المؤسسات العاملة للقدس:

- إنشاء برامج مشتركة على الصعد الشعبية والإعلامية والخيرية، تجمع مختلف الأحزاب والقوى الفاعلة في الأمة، في سياق دعم ونصرة المدينة المحتلة.
- إطلاق المبادرات العملية الهادفة لتحييد الخلافات البينية، والدفع بقضية القدس نحو مساحات جديدة من العمل المشترك.
- الضغط على الحكومات والدول العربية والإسلامية لوضع القدس في صلب المناهج التعليمية، وهي خطوة أساسية لتحقيق النقلة النوعية بالاهتمام بالقدس من التفاعل الموسمي، إلى التراكم المعرفي مع هذه القضية.



الإدارة العامة
شارع الحمرا - بناية السارولا - الطابق 11
هاتف: 00961-1-751725
فاكس: 00961-1-751726
ص.ب: 113-5647 بيروت لبنان
info@alquds-online.org
www.alquds-online.org